الهويّة : التأصيل وإيحاءات المعنى

د. سلمى بنت محمد عبد الله باحشوان
جامعة الملك عبد العزيز المملكة العربيّة ، السعوديّة
د.عادل محمد الصالح
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، القيروان تونس

Abstract:
The strengthening of identity is linked to the connotations of human thought, in general, and the Arab thought, in particular. For instance, difference is an aspect of identity and culture and violence is a threat to identity because of the dominance of collective identity on the other. As a consequence, the latter disappears and fades away. We will analyze such issues as the foundation and the referential frame of this research.
Key Words: identity, community, culture, religion.

ملخص:
يرتبط تأصيل الهويّة بإيحاءات في الفكر الإنسانيّ عامّة والفكر العربيّ خاصّة، مثل الاختلاف الذي يعدّ ملمحا من ملامح الهويّة والثقافة بوصفها رافدا من روافدها والعنف الذي يعتبر من المخاطر المهدّدة لها بسبب هيمنة هويّة جماعيّة على أخرى فيكون مآلها الزوال والتغييب، كلّ هذه الإشكاليات سنسعى إلى تحليلها باعتبارها من ركائز هذا البحث وإطاره المرجعيّ.

الكلمات المفاتيح: هويّة، جماعة، ثقافة، دين.

مدخل:

تبدو إشكاليّة الهوية إشكاليّة متجدّدة ومتجذّرة في التاريخ، وهي لصيقة بالثقافات المتنوّعة، لا يمكن لشعب مّا أن يتنصّل منها أو يكون في حلّ منها؛ فالهويّة هي مشكّل بنيويّ للأعراق وتاريخ الثقافات والأمم. وإنّ التاريخ الإنسانيّ لا يكتمل إلاّ بالهويات، ولا يمكن أن يسير قدما دونها، وهي متوارثة بين الأجيال ومشتركة بين الجماعات والأفراد. وإنّ المتأمّل في هذا المصطلح يراه مصطلحا وظيفيّا لا يمكن إنكاره أو استبعاده من دائرة الأبحاث الحديثة والمعاصرة، فمبحث الهويّة جديد حادث نظرا إلى المتغيّرات الكونيّة والإقليميّة حتى أنّ الكتاب والمفكّرين أعادوا النظر في هذه الإشكاليّة مع المتغيّرات المعاصرة وتشكّل الأعراق والملل والنحل تشكّلات جديدة في التاريخ، فإشكاليّة الهويّة من القضايا المعاصرة التي تستوجب دراسة وتحليلا معمّقا لأنّها متغيّرة بتغيّر بنية العقل العربيّ وتأثّره بالثقافيّ الكونيّ، فلا يمكن دراسة الهويّة بمعزل عن الآخر ولا يمكن مقاربة هذه الإشكاليّة دون تنزيلها في سياق ثقافيّ مشترك، لذلك سنسعى في هذا البحث إلى الكشف عن المكوّنات البنيويّة لمفهوم الهويّة ودلالاتها الوظيفيّة من خلال شرح المصطلح شرحا وظيفيّا يتجاوز سياق التوصيف ليغدو لصيقا بالتاريخ، ومن ثمّة سننزّله في إطار ثقافيّ عربيّ وغربيّ وستكون بعض الدراسات والكتابات العربيّة والغربيّة سبيلا إلى شرحه وتحليله، ولا يفوتنا أن نبيّن للقارئ أنّ الكتابات العربيّة التي اهتمت بإشكالية الهويّة على كثرتها لم تكن وظيفيّة، فالمراجع الغربيّة مهمّة رغم مقاربتها للهويّة في سياق ثقافيّ

مختلف، فهي تثري البحث في الدراسات الإنسانيّة وعلوم الاجتماع، وتحمل في طياتها وعيا بأهميّة البحث في الهويّة، أمّا المصادر الثانوية – ونقصد بذلك المراجع التي لم تتناول إشكال الهويّة بصفة مباشرة- فهي وإن لم تتطرّق لموضوع الهويّة بشكل جليّ، فإنّها رسمت معالمها في الأدب والشعر، فقد أحالت تلك النصوص على هويّة ما وحافظت على خصائصها وتفرّدها ورسمت حدودا خاصّة لها، والهويّة إجمالا مفهوم منفتح على الثقافات الأخرى مستلهم للأنساق المعرفيّة الكونيّة، متطوّر في حركة التاريخ، وظيفيّ في المقاربات الإنسانيّة.

1 تأصيل الهويّة

كيف يمكن تأصيل مفهوم الهويّة إذا ما اعتبرنا أنّ هذا المصطلح متطوّر في التاريخ، متغيّر بتغير الجماعات البشريّة والثقافات، وإذا ما أقررنا أيضا أنّ هذا المفهوم تتنازعه القراءات والمناهج والأديولوجيّات الكثيرة، لكن يمكن أن نجمل القول في أنّ الهويّة مصطلح تاريخيّ بمعنى أنه اكتسب دلالته من سيرورته في التاريخ، ويتحدّث أحد الباحثين المهتمّين بالهويّة قائلا: "لا يمكن لماهيّة الهويّة أن تردّ إلى تعريف اسميّ لأنّها بنية ذهنيّة ماهويّة تتعالى عن الحسم، تتلوّى على التشظيّ، تتصلّب كلّما حاولنا إمساكها وقولها ونظمها. فنحوها هو الاختفاء والاحتجاب، وبيانها هو كيفيّات ترحالها المتواصل"[1]. وإنّ هذا القول فيه اعتراف باستعصاء مفهوم الهويّة عن التحليل والمقاربة، فهي بنية ذهنيّة تكوّنت عن طريق التراكم في التاريخ فلا يمكن أن نحيطها بالتعريف والتدقيق بيسر. ويذكر ظافر الشهري الأكاديميّ السعودي" إنّ الهويّة تعني وحدة المشاعر الداخليّة التي تتمثّل في وحدة العناصر الماديّة التي تجعل الإنسان يتمايز عمّن سواه، ويشعر بشخصيّته الذاتيّة فردا وجماعة في المجتمع الواحد. إنّ تأصيل الهويّة والتشبّث بها وبمفهومها الواحد وبخصوصيّتها، إنّما هي سمة مميّزة للمجتمعات الإنسانيّة على مرّ العصور، لأنّها تحافظ على بنية المجتمع ثقافة ووعيا إنسانيّا"[2].

أمّا التعريفات اللغويّة فقدّمت إضافة مهمّة نظرا إلى تركيزها على المجال الاشتقاقيّ، فقد ورد في "معجم المعاني" أنّ "الهويّة هي البئر البعيدة القعر، هويّة الإنسان حقيقته المطلقة وصفاته الجوهريّة، الهويّة: إحساس الفرد بنفسه وفرديّته وحفاظه على تكامله وقيمه وسلوكياته وأفكاره في مختلف المواقف"[3]، إذ يبقى التعريف اللغويّ لمصطلح الهويّة محدودا رغم الإيحاءات التي يمكن أن نلمسها في الإحالة اللغويّة على العمق والصفات الجوهريّة والفرديّة، وهذا يشير إلى أنّ اللغويين فهموا أنّ المصطلح إشكاليّ لذلك تعاملوا معه بحذر، ولكنّ اكتمال الشرح والتدقيق سيكون ضروريّا عندما تطوّرت المناهج والمعارف الإنسانية في مختلف الحقول والمجالات المعرفيّة، فالهويّة هي لصيقة بذات الإنسان ولا يمكن أن تنفصل عنها لأنّها من مكمّلات الوجود الإنسانيّ ولا تتّصل بالكائنات الأخرى التي تقاسمه الوجود والعيش في رقعة أرضيّة ما لذلك يشترط في الهويّة وجود البشر، كما أنّ الإنسان يستلزم وجوده وجود الهويّة لتميّزه وتؤكّد تاريخيّته واستمراريّته في التاريخ.

وتبدو التعريفات الاجتماعيّة من أدقّ التعريفات لمصطلح الهويّة وتأصّله تأصيلا دقيقا، وفي هذا المنحى يقول أحد الباحثين:" وتتضح دلالة التشابه أيضا في المعنى السوسيولوجي للهويّة، الذي يظهر في الهيكليّة التقليديّة لوظيفة الأنتروبولوجيا؛ إذ يأتي معنى الهويّة بطريقة تفهم أنّها متجذرة تاريخيّا وثقافيّا مع الصورة الذاتيّة لمجموعة من الناس التي كانت في الغالب قد رسمت خطّها باتصالها بالمجموعات الأخرى من الشعوب"[4]، ولمّا كان الإنسان كائنا اجتماعيّا لا يستطيع العيش خارج الجماعات البشريّة فإنّه سعى مدفوعا بالغريزة الإنسانيّة العاقلة التي تميّزه عن الحيوان إلى الاستقرار في جغرافيا محدّدة فتاق في البداية إلى أن تكون الجماعة البشريّة التي تستحوذ على رقعة جغرافيّة ما لها مشترك يجمعها، وإنّ هذا المشترك يختلف من مجموعة بشريّة إلى أخرى؛ إذ لم يكن الدين في الحقب القديمة جامعا للجماعات البشريّة لأنّ الدين كان لاحقا للاجتماع البشريّ، ولم تكن الحدود الجغرافية كذلك لأنها غير ثابتة في التاريخ، والجغرافيا مرتبطة باستقرار الانسان ومكوثه الطويل في مكان ما في حين تميّز الإنسان منذ القديم بالارتحال والانتجاع

إلى أن تأسّست الدول واستقرّت ووضعت الحدود، ولكنّ الجامع والمشترك بين الجماعات هو عامل الهويّة المشتركة والتي تحدّدها مستويات مختلفة منذ العصر القديم منها عامل الانتماء إلى العلامة اللغويّة الواحدة، ونقصد بذلك أنظمة التواصل اللغويّة بين الجماعات والأفراد، فالإنسان كان عاقلا ومتكلّما وهذه المحدّدات اللغويّة هي متطوّرة في التاريخ، وفي الآن نفسه كانت مشتركا ثقافيّا لتشكيل الهويّة اللغويّة، فقد انجذب الإنسان في الاجتماع البشريّ إلى من يشاكله في اللغة وأنظمة التواصل، وثمّة محددات أخرى منها الأبنية الرمزيّة التي تعتبر قاسما مشتركا بين الجماعات التي تشترك في هويّة ما، ونقصد بها الملبس والمأكل والاستدلالات العقلية، فكلّ هذه الأبنية تختلف من مجموعة بشريّة إلى أخرى. كما أنّ الهويّة مثلما أشرنا متطوّرة في التاريخ، قديمة قدم الإنسان، متبدّلة بتبدّل الجغرافيا وترقيّ الانسان واكتسابه لمهارات التواصل والعيش وتفنّنه في تكييف حياته حسب الواقع، لذلك حلّت محدّدات جديدة للهويّة مكان المحدّدات الأولى فغدا الدين الذي يعدّ من الأبنية الرمزيّة مشتركا في الهويّة، بل أصبح من أهمّ عناصرها البنيوية خاصّة بعد نزول الديانات التوحيديّة (اليهوديّة، والمسيحيّة، الإسلام) ومن ثمّة ستتأثّر الهويّة بطابع عقديّ مميّز للجماعات البشرية التي تدين إلى دين من هذه الأديان السماويّة، كما أنّ للأديان الوضعيّة نصيبا في نشأة الهويّات المختلفة، وهي عديدة قد شرحها الكتّاب والمفسّرون في كتب الملل والنحل وبيّنوا مقاصدها وأباطيلها لكنّها شكّلت بنى ذهنيّة كثيرة اختصت بها جماعات بشريّة ولم يستطع العقل الإنسانيّ رغم تطوّره محوها أو أن يعيش بحياد معها، فقد كانت حاضرة حضور الديانات التوحيديّة.

أمّا أهمّ التعريفات الفلسفية للهويّة، فهي تعريفات مجرّدة صاغها الفلاسفة من أجل تقديم مقاربات على صلة بالإنسان بما كائن اجتماعيّ عاقل يحتاج الهويّة الجماعيّة سبيلا لإثبات كينونته وعقلانيّته، بيد أنّ التعريف الفلسفيّ يبقى تعريفا مجرّدا لا يفي بالغرض في هذه الدراسة، والذي يهمّنا هو التعريف الاجتماعيّ والأنتروبولوجيّ باعتبارهما تعريفين يفيان بالغرض الذي نهتمّ به في هذا البحث، فقد اهتمّ علم الاجتماع بإشكال الهويّة لمقاربة الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيّا تتعذّر حياته خارج إطار الجماعة، إذ في الوحدانيّة ضرب من إلغاء إنسانيّة الإنسان وتوقه إلى الاجتماع البشريّ. وإنّ الاجتماع البشريّ ممهّد للهويّة التي ستتشكّل تدريجيّا وتفصل الجماعات البشريّة بعضها عن بعض لتصبح بمثابة الحواجز الهوويّة وسمات تمييزيّة تتحكّم فيها الدولة بما نظام يهدف إلى التنظيم السياسيّ للمجتمع.

من بين التعريفات المهمّة " أنّ الهويّة هي الأبنية المتراكمة، هي الحقيقة والوهم، هي التبعثر الذي لا يسكنه العقل إلاّ على سبيل التجريد والخيال والوهم، هي المحايثة والتعالي، السياق واللاسياق، الزمن والتيه... بل هي إبستيمية الوجود، وأعني بها فكره ونواته الثابتة والمتكرّرة في كلّ عمليّة خلق جديدة"[5]، ويبدو من خلال هذه التعريفات التي قامت على التناقض أنّ الهويّة مبحث إشكاليّ، فهي مصطلح تختلف حدوده لذلك كان حمّال متناقضات، ولكنّ هذه المتناقضات تلتقي في بعد مهمّ للهويّة هو الثبات والأصل وهذا يستشفّ أيضا من التعريف اللغويّ الذي يشير إلى القرار والعمق كما أنّ الهويّة في علاقة جدليّة بعامل الزمان إذ تسير مع الزمن وتحايث التاريخ ولكنّها في الآن نفسه لا تنفصل عن الماضي، وإنّ هويّة الجماعات يمكن أن تستمرّ لقرون من الزمن ويتوارثها المحدثون عن القدماء ويحافظوا عليها من التغييب والتغيير، فهي إرث رمزيّ لا يمكن أن ينكره الأجيال ولا يمكن للإنسان أن يعيش دون هويّة لأنّها شاهدة على كينونته واستمراريّته، فالهويّة مثل الحاجة البيولوجية ضرورة وحتميّة تحقّق التوازن الإنسانيّ وتضمن للأفراد ضرورة الانتماء، وقد قدّم المفكّر الإسلاميّ حسن حنفي مقاربة لإشكاليّة الهوية أجمع فيها كلّ التساؤلات السابقة وحاول إيجاد أجوبة لها[6].

1- 1 الهويّة والاختلاف

لا يمكن تفسير الهويّة دون الإقرار بأنّها قائمة على الانسجام، وهي في الآن نفسه رديفة للمشاكلة خاصة إذا تحدّثنا عن الهويّة في إطار جماعة بشريّة تحمل نفس الانتماء الهوويّ إن صحّ التعبير، فحينئذ تتحوّل إلى ضرب من الائتلاف والتوحّد والانسجام و تصبح ملغية للمختلف[7]، ومن هذا المنطلق تغدو الهويّة قابلة للتأويل، فمن جهة تكون إحدى ركائز الاجتماع البشريّ إذ ينتظم الأفراد بالانتماء إلى هويّة معينة، من جهة أخرى يمكن القول إنّ الهويّة مدعاة للتفرقة والعنف إذا اصطدمت بهويّات أخرى، ومثل هذا الطرح لقي صدى في البحوث المعاصرة إذ تصبح الهوية اختلافا وسبيلا إلى العنف والصدام، فالهوية الأحاديّة لا يمكن أن تتواصل إلاّ إذا تحوّلت إلى هويّات جماعيّة محقّقة للانسجام لكنّها في الآن نفسه يمكن أن تتحوّل إلى أداة للعنف رغم وجود كيان الدولة المنظمة للأفراد والجماعات[8]، إذ أنّ الهويّة تتبلور مع وجود الجماعة وسياق تاريخيّ ما فـ" هوية الأفراد تشير إلى هويّة المجموعة التي ينتمون إليها، وهو ما يتّسق مع النظريات الأنتروبولوجية حول العلاقة بين الشخص والجماعة أو المجتمع، والذي يعدّ أنّ مجموعة من الناس تشترك في الهويّة نفسها؛ لأنّها مشتركة في التاريخ نفسه. وعليه يكون المجتمع الذي ينتمون إليه مجتمعا صلبا وغير قابل للتغيير"[9].

ولعلّ التاريخ المعاصر يشهد بصراع الهويات المتناحرة إذا ما أقررنا أنّ الهويّة تصبح ميدانا للصراع مع الهويات الجماعيّة المختلفة إذا كان لها طابع عقائديّ أو دينيّ أو طائفيّ، ويشهد الحاضر أنّ الهويّات الجماعيّة اكتسبت طابعا دينيّا طائفيّا متطرّفا في سياقات عديدة، فكان الاحتراب والاقتتال، أمّا النتيجة فهي حتمية أمام هذا الصراع الدمويّ، إذ تغيب الهوية وتضمحلّ وتتفتّت الدول والمجتمعات ويصبح الإنسان المنتمي إلى هويّة ورقعة جغرافيّة ما تائها ينشد سلاما لن يظفر به. وهذا كلّه يعود إلى فهم خاطئ للهويّة، يقول علي رسول حسن الربيعي: " أصبح العنف أعظم بلاء مهيمن على العالم اليوم، فهو يتزايد ويتّخذ من المراوغة أوجها معقّدة ومتعدّدة ويتخفّى ليتفجّر بين الناس بطرق غير متوقّعة. إنه درجة من درجات الصراع، وغالبا ما يتفجر عندما تصل حرارة الصراع إلى درجة معينة. فيؤدي المستوى العالي من الصراع إلى مستوى عال من العنف في معظم الأحيان. يمتلك العنف ديناميكية خاصة، أي له قوته وفعاليته ومحركاته الذاتية، وبالتالي فإن تحوّل الصراع إلى عنف يُعدّ في حد ذاته تغييرا في طور ودور ودرجة الصراع"[10]. وإنّ هذا الصراع له حركة دؤوبة مثلما أشار المفكّر في الشاهد السابق، فتحوّله إلى عنف يحمل ملامح صراع الهويات، وتعدّ بعض الدول العربيّة أنموذجا جديرا بالدراسة إذ نلمس تحوّل الهويّة من حالة الإجماع إلى حالة الفرقة، لذلك لا غرابة أن نجد عديد الآراء التي تلصق الطائفية بالهوية، وقد عرف التاريخ الإسلاميّ القديم والمعاصر صراعات دمويّة كانت الهويّة من أسبابها وعواملها المؤثّرة، ولعلّ الحروب التي تندلع بسبب الهويّة تكون أشدّ فتكا وسفكا للدماء لأنّها تغتذي من المشترك الجماعيّ الذي يعتبر إرثا رمزيّا تحاول كلّ مجموعة أن تصونه وتعلي من شأنه، وعادة ما يلعب الدين دورا أساسيّا في تغذية هذا الصراع، إذ تحفل محطّات كثيرة من التاريخ الإسلاميّ بملامح هذا الصراع الدامي المتّصل مباشرة بالهويّة، وتقول أمارتيا صن في هذا الموضوع " إنّ الخلط بين الهويّات المتعدّدة للمسلمين، وهويّتهم الإسلاميّة خصوصا، ليس مجرّد خطأ في التوصيف، لكن له آثارا خطيرة على سياسات السلام في العالم الحرج الذي نعيش فيه، هناك قدر عظيم من القلق في عالمنا المعاصر بشأن الصراعات الكوكبيّة والإرهاب"[11]، فالواضح أنّ الصراع متأتّ من عدم فهم مقاصد الهويّة من خلال النموذج الإسلاميّ، إذ فسّرت الهويّة الإسلامية بأنّها السمة المميّزة للمسلمين، والحال أنّهم ملل ونحل مختلفة، فكان التنازع بسبب الاعتقاد أنّ الهويّة الإسلاميّة عامّة لجميع من سكن أرض الإسلام، لكنّ الناس كانوا مختلفي المعتقدات وظلّت عقائدهم كامنة في أعماقهم ولم يبدّلوها، وتجلّت بسبب هذا التفسير الخاطئ والتعميم الشامل، فكانت النتيجة انتشار ظاهرة الإرهاب وتحوّله من ظاهرة إلى أداة لإبادة

الأقليّات الدينيّة والاعتقاد بأنّ الإسلام يجب أن يكون السائد ولو بالقتل والاحتراب الأهليّ، والواقع أنّ هذه الجماعات المتطرّفة توظّف الدين لغايات سياسيّة. وهي بذلك تخدم مطامح قوى استعماريّة كبرى[12] من خلال عدم إيمانها بشرعيّة الدولة وتكفير الحاكم والخروج عليه، وإنّ هذه الجماعات المتطرّفة تتّخذ من قراءة تأويليّة للدين سبيلا إلى إضفاء شرعيّة على ممارساتها الإجراميّة في حق أبناء هويّتهم من المسلمين وأبناء الطوائف الأخرى، وهي حرب لا تؤمن بالحدود الجغرافيّة بين الدول بعد أن قسّمت العالم حسب رؤيتها إلى ديار كفر وديار إيمان، ويشير المفكّر علي رسول حسين الربيعي إلى مخاطر العنف المستشري بدوافع الهويّة قائلا: " تقوم هذه الزعامات بالتحريض على العنف من أجل خلق وتثبيت الحواجز الماديّة والنفسيّة بين الجماعات، ولكسب تأييدها ومن ثم السيطرة عليها والتحكّم بها. تؤثر هذه العملية بطريقة فعّالة في تشكيل الهويات المتنازعة وفي إثارة نوع عنف أكثر وأقوى. لقد تكاثر استعمال العنف كوسيلة من قبل تلك الزعامات في السنين الأخيرة وتؤكّد الشواهد في العراق وسوريا وليبيا واليمن وغيرها على ذلك"[13].

يتبيّن لنا إذن أنّ هذه الجماعات تحاول مأسسة العنف واتخاذه طريقا لإزاحة الهويّات المخالفة، كما أنّها لا تؤمن بالهويّات الجماعيّة وتؤسّس للهويّة الفردية المنغلقة على ذاتها والتي تسعى إلى استبدال الهويات الأخرى إمّا طوعا عن طريق الإذعان والخضوع وإمّا بواسطة الإبادة الجماعيّة والقتل، ويشهد التاريخ المعاصر على أمثلة كثيرة لا مجال لتعدادها وذكرها في هذا المقام، ويرى الباحثون تفسيرات كثيرة لاستشراء العنف الموصول بالهويّة في المجتمعات العربية المعاصرة ولكنّه قد ينتشر إلى أرجاء أخرى من المعمورة إيمانا من هذه الجماعات بأن لا حدود تفصلهم لتأسيس دولة الخلافة الإسلاميّة إذ "يمكن للاعتقاد الدينيّ في توظيفه السياسيّ أن يتحوّل إلى عنف غير مقيّد من خلال إضفاء معنى على الفعل لا يقتصر على العالم الواقعيّ كما هو موجود، ولكنّه يوحّد آمالا وقناعات تتعلق بهذا العالم والعالم الآخر. لهذه الآمال والقناعات دور كبير في تفجّر العنف السياسيّ. فامتلاء المعنى الذي يوفره الاعتقاد الديني يمنح الفاعل قوة وشرعية غير محدودة بوصفها صادرة عن حكم إلهي"[14]، وبهذا تتحوّل هذه الجماعة إلى بؤر جاذبة لمتطرفين جدد من كافّة أصقاع العالم متوهّمين جامعا مشتركا بينهم يتمثّل في الانتماء لهويّة جماعيّة مشتركة يغذّيها الدين، وإنّ هذه الجماعات المتطرّفة- رغم تمرّدها على نمط الدولة التقليديّ الذي يخضع الأفراد إلى مؤسساتها وفق نظام وقوانين ملزمة- أسّست شكلا آخر من التنظيم السياسيّ لا يعترف بالدولة والمواطنة[15]، مستمدّا من النصوص الفقهيّة التي فسّرتها بما يخدم مصالحها، وامتلكت المال والسلاح نهبا وسطوا واتسع نفوذها إلى مناطق جغرافيّة كثيرة حتى عجزت الدول التي استشرى فيها هذا العنف المستند إلى الهويّة الدينية على ردع هذه التنظيمات الإرهابيّة، وقد اتخذ هذا العنف طابعا مضادّا وتحوّل الصراع بين الدولة التقليدية وهذه التنظيمات إلى صراع مستديم إذ " تتصف هذه الحروب بأنها طويلة الأمد وربما تستمر لعقود، وقد تحدث فيها حلقات من القتال الشرس تتخللها أوقات سلم نسبيّ، وغالبا ما تكون حدود الحرب/ والسلام غير واضحة المعالم في الزمان والمكان. هناك اختلاف في أشكال أو أنماط هذه الحروب، فقد تشترك فيها قوات مسلحة نظامية، وجماعات غير نظامية، ومتمردون، ومدنيون، وزعماء حرب محليّون. فهي ليست حربا بين قوتين عسكريتين تقليديتين منفصلتين بشكل واضح"[16]. ومن هذا المنطلق لا يمكن التكهّن بانطفاء هذه الحروب واندثارها فقد أصبحت معضلة تمسّ بجوهر الإنسان وتهدّد وجوده كما أنّها تساهم في انحلال الدول تدريجيّا وانتفاء التعدّد الطائفيّ والإعلاء من الهويّة المهيمنة التي تبسط سطوتها بقوّة السلاح والمال، ويبقى السؤال الملحّ ماهي السبل الكفيلة بوقف هذه الصراعات الدامية؟ هل يمكن مواجهتها بعنف مضادّ أم بمقولة الخير مثلما ألحّ على ذلك الربيعي في مقاله المهمّ؟

2-1 الهوية والثقافة

لا يمكن التسليم بأنّ مقولة الخير يمكن أن تجابه عنف الهويّات، وقد أثبت التاريخ المعاصر هذه الفرضية، إذ أنّ العنف المنبثق عن الهويّة هو عنف تاريخيّ كامن في اللاوعي الجمعيّ عند كثير من الأفراد وإنّ الجامع الرئيس بينهم هو ما استبطن من أفكار وأهواء سرعان ما تأتلف وتصبح مرجعيات لهاته الجماعات المتطرفة، ومثلما أشرنا يؤدّي الفهم الخاطئ للدين إلى الوقوع في هذه المعضلة فـ" ظاهرة الرموز الدينية بجملتها التي باتت تشكّل الهوية العلنية للأفراد لا يمكن النظر إليها كحالة عابرة ستنتهي بتوقف القتال، ولا يمكن حلّها بقرار سلطوي"[17]، لذلك من الصعب أنّ تتمّ مقاربة الهوية العدائية بقرار مؤسّسات الدولة، بل يجب البحث عن الأسباب الثقافيّة المحرّضة على هذا الصراع القاتل، إنّها باختصار مشكلة ثقافة متراكمة ومشكلة نصوص، ولكن هذا لا يعني أنّ العقل العربيّ عجز عن تنظيم المجتمعات أو تقديم تصوّر عقلاني لمسألة تعايش المجتمعات مع بعضها البعض، وإنّما يكمن القصور في وجود ثقافة موازية للسائد والرسميّ، ولكنّ هذه الثقافة الموازية كان لها تأثيرها و لها أتباع كثيرون حاولوا تقنينها وإضفاء مشروعيّة عليها وذلك باعتماد عقل تأويليّ يميل إلى التطرّف والانغلاق واستبعاد الوسطيّة والاعتدال، وقد شهد التاريخ الإسلامي ظهور ملل ونحل متناحرة اعتمدت الدين مرجعا أساسيا للهوية والاقتتال، إذ استلهمت عديد الجماعات الدينية المعاصرة ما استقرّ في هذه النصوص الهامشيّة من آراء لكنّها أصبحت في نظرها أساسيّة ولها قيمة النصوص الدينية والأحاديث.

ويبدو المأزق إشكاليّا خاصّة إذا تعلّق بتراكمات معرفيّة وثقافيّة كثيرة، إذ أنّ الأدبيّات التاريخيّة والثقافية لا يمكن تغييبها لأنها مكتوبة ومحفوظة في الرفوف والمكتبات، أمّا ظهور هويّات عنفيّة في المجتمعات العربيّة المعاصرة فيعود إلى الاتّكاء على هذه الأدبيات وإعادة تفسيرها بما يخدم مصلحة هذه الجماعات المتطرّفة، واعتبار أنّ مسألة الهويّة في الثقافة العربيّة لا يمكن أن تنفصل عن هذه الأدبيات، وكل انفصال وجنوح إلى هويّة أخرى يعتبر ميلا بدعيّا وضلالا وخروجا على الإسلام، فالمسألة برمّتها هي مسألة ثقافة لم تنجح في حجب هذه الأدبيات المتطرفة، بل ساهمت السلطة السياسية على مرّ العصور بإذكائها حتّى اكتسبت مشروعية وأصبحت تضاهي الأدبيّات الرسميّة في الفقة والحديث، ولعلّ صمت السلطة السياسية مقابل استشراء هذه الأدبيات يعود إلى تجنّب الاحتراب من جانب وإيمان الساسة بهذه الأدبيّات في مراحل كثيرة من التاريخ الإسلاميّ من جانب آخر؛ ويبدو جليّا أنّ تكريس هويّة أحادية مهيمنة في هويات اجتماعيّة مختلفة يؤدي إلى عنف جماعيّ بسبب اعتبار الهوية هي المعيار الوحيد للتعايش السلميّ بين الأفراد في حين "إنّ هذا الفهم يفرض على الهوية أن تكون قارة، وثابتة، وجاهزة، وواعية، وفي المقابل، فإننا نجد الاستخدام السائد لمفهومي الاختلاف، والغيرية يطرحان بدورهما مشكلات لا تقلّ عن تلك التي تطرحها المناقشات حول الهوية. فالاختلاف ينظر إليه في الكثير من النصوص النقدية العربية على أنه التمايز الأبدي بين كيانات ثابتة سواء كانت هذه الكيانات ثقافات، أو أعراقا، أو حضارات"[18]. وبلا شكّ إنّ مثل هذه التصورات تنعكس سلبا على حياة الجماعات والأفراد وتؤسس لانحلال الدول وإلغاء الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيّا تنظمه القوانين التي لا بدّ له أن يمتثل لها ويخضع لها دون أن تسلب إرادته أو حريته، وإنّ ظهور هذه الهويّات العنفيّة هي نتيجة للثقافة مثلما أشرنا، وفي الآن نفسه نتيجة للدول التي تضعف شوكتها وتضمحلّ، فتحلّ محلّها جماعات تتخذ من فرضية ضياع الهويّة الجماعيّة سبيلا إلى فرض سطوتها واستعباد البشر وحكمهم في ظل دولة قهريّة.

تشكّل الثقافة الإرث الرمزيّ المشترك بين الجماعات البشريّة، وهي تكتمل بفعل عامل الزمان وتتّخذ لغة ما تكون اللغة المهيمنة والمتداولة، ولكن يمكن أن نجد لغات بديلة داخل الثقافة الواحدة وذلك دليل على أنّ الثقافات لا تتشكّل معزولة عن بعضها البعض، وإنما بالأخذ السليم من الثقافات الأخرى، إذ لا يمكن لثقافة ما أن تكون منغلقة غير منفتحة وهذا يدعم الهويّة ويشكّل روافد بنيويّة لها[19]، من ذلك أن تتميّز بلغات معينة وأنظمة رمزيّة مشتركة، وهذا دليل

على الاختلاف والتنوّع والرغبة في تأسييس هوية متجانسة ومتداخلة الأعراق، إذ أنّ الشكل القويم للهويّة أن تكون متنوّعة المشارب الثقافيّة من لغة ورموز دينية وأنظمة رمزيّة[20]، ومثل هذا التنوّع يمكن أن يجعل الثقافة ترتقي بالوعي المجتمعيّ المعرفيّ والسياسيّ، أمّا الانغلاق فيقدّم نتيجة عكسيّة، ومثال ذلك هويّة أحاديّة لا يمكن أن تفرز التنوّع والمثاقفة[21].

لا يمكن إذن الفصل بين الثقافة والهوية فهما متّصلتان متزامنتان، وعن هذا الاتصال والتزامن يقول دنيس كوش:"هناك رغبة في أن نرى الثقافة في كلّ مكان وأن نجد الهويّة لكلّ الناس. أزمات الثقافة تدان كما تدان أزمات الهويّة"[22]. إذ لا يمكن أن توجد الثقافة بمعزل عن الهويّة ويجب أن تكون الهويّات المندرجة داخل ثقافات معينة تتمتّع بنفس الامتيازات وأن لا تتعرّض هويّة ما إلى الإقصاء والنبذ، وقد أشار المفكّر علي رسول حسن الربيعي إلى معضلة هذا الإشكال في ظلّ هيمنة ثقافة سائدة وهويّة غالبة للهويات الأخرى إذ " تنطوي سياسة التسامح على ترك الجماعات أحرارًا في تأكيد هوياتهم والتعبير عن قيمهم الثقافية خاصة.

ويكون دور الدولة هنا سلبيًا: إذ لا ينبغي لها إجبار الأقليات على التكيّف وإطاعة الثقافة السائدة، ولا أن تقيم الحواجز التي تُعيق ازدهار ثقافات تلك الأقليات. إضافة إلى ذلك، تقع على الدولة مسؤولية إيجابية أيضا هي حماية ثقافات الأقليات عندما يجد أعضاء تلك الأقليات أنفسهم في منافسة غير متكافئة مع الثقافة السائدة"[23]. وإنّ سياسة التسامح تنتجها الثقافة المتوازنة، تلك الثقافة التي لا تقوم على النبذ مثلما أشرنا سابقا، إذ يعيش في كنفها المختلف والمتجانس من إثنيّات وأقليّات وملل ونحل، وإنّ سياسة التسامح هي إحدى مقومات الدولة العادلة التي تحترم القيم الثقافيّة والهويّات، ودون شكّ إنّ الهويّة لا يمكن أن تتحوّل إلى هويّة عنفيّة في ظلّ دولة التسامح والثقافة المعتدلة التي ترعاها، إذ "إنّ إحدى السمات الأكثر بروزا للسياسة في عصرنا هو تنامي طلب الجماعات الثقافية المختلفة الاعتراف لها بهوية خاصة تميّزها.

المطلب الأساس هو أن ينفتح النظام السياسيّ الديمقراطيّ تجاه هذه الجماعات، ويتخلّى عن السياسات والإجراءات التي تضرّ بهم أو تتجاهلهم، وأن يتم الاعتراف بهم على قدر المساواة مع حاملي الهويات الثقافية للأغلبية أو السائدة "[24]، ويظل المطلب الأساس أن تعترف الدولة بثقافة متنوّعة المشارب مختلفة الهويات ولا مجال فيها لهويّة مهيمنة ومقصية للهويات الأخرى، ولكن يبدو واضحا أنّ هذه التقاطعات الثلاثيّة بين السياسة والثقافة والهوية عمادها الثقافة، فهي المشكّلة للوعي الجمعيّ والعقل العربيّ، كما أنّ الدولة لها دور الرقابة على الهويات الجماعيّة، فإن خفّت رقابتها يمكن للهويات المتباينة أن تزدهر وتتعايش مع بعضها البعض رغم اختلافاتها، فالثقافة هي المحدّد والمسيّر بما أنّها تنتج الأدبيّات المقروءة والمكتوبة، وينسحب هذا التقديم للثقافة على واقع الثقافة العربية نظرا إلى تداخل الدين والسياسة فيها، فالثقافة والدين متداخلان ولكلّ منهما تأثير على الآخر، فقد كانت الأدبيات الثقافيّة متأثرة بالدين، واحتلت كتب الفقه والحديث وعلوم القرآن حيّزا كبيرا من التراث الفكري العربيّ، ومن ثمّة قامت السياسة على هذه الأدبيات، فكان شكل الدولة العربيّة الأولى إسلاميّا محضا وتأسّست هويّة جماعيّة إسلامية تستمدّ مشروعيّتها من القرآن الكريم وكتب الفقة، وظلّت الهويات الأخرى هويّات صامتة داخل هويّة مهيمنة تحاول أن تكتسحها وتلغيها في الآن نفسه، وقد أدّى هذا التنافر إلى احتراب واقتتال ما زال ممتدّا إلى عصرنا الحاضر في المجتمعات العربية والإسلاميّة.

2 الهويّة وأسئلة الثقافة المعاصرة

هل يصحّ القول أنّ الهويّة معطى ثابت لا يتبدّل ولا يتغيّر في التاريخ؟ وإذا كان مفهوم الهويّة ثابت وغير متحوّل ألا يساهم ذلك في الانغلاق والتقوقع على الذات والاستكانة؟ ماهي الأسئلة الملحّة التي تطرحها الثقافة المعاصرة على الهويّات الجماعيّة السائدة والهويات الفرديّة؟

من هذا المنطلق لا بدّ من تقديم مقاربة عقلانيّة للدولة المعاصرة التي من المفترض ألاّ تكون دولة منبنية على الإقصاء وإلغاء البعد التحرّري للإنسان، تلك الدولة التي تتصارع مع الثقافة حتى يتبيّن في الأخير أيّهما أكثر قدرة على الصمود والخروج بالهويّة من دائرة النبذ والاستبعاد، ولعلّ أهمّ ما يمكن أن يكون في جوهر كلّ ما سبق من الأسئلة هو كيفيّة المحافظة على خصوصيّة الهويّة في ظلّ ثقافة تنفتح على الآخر وتتصهر مع بقيّة الثقافات الكونيّة. وتظلّ خشية الهويات السائدة أو المهيمنة قائمة في ظلّ العولمة والانفتاح على الآخر بقيمه المختلفة وأنظمته الرمزيّة والثقافيّة، وهنا يقع صراع بين الهويّات المحلّية والهويات الوافدة التي تتمظهر في اللغة وأنماط العيش واليوميّ لا سيّما أنّ الهويّة لصيقة بالإنسان جينيّا "إذ إنّ الهويّة في بعض الأطروحات المغالية تكون مرسومة عمليّا في الإرث الجينيّ. يولد الفرد بفعل ميراثه البيولوجيّ، وله عناصر مكوّنة للهويّة الإثنيّة والثقافيّة، بما فيها خاصيات الطبع الوراثيّ والخصال النفسيّة التابعة للذهنيّة والعبقريّة الخاصّة بالشعب الذي ينتمي إليه"[25]، صحيح أنّ هذا التفسير يقحم العلوم الصحيحة في تفسير الظواهر الإنسانية والاجتماعيّة والنفسية، لكنّ الهويّة تبقى مصطلحا إشكاليا ومبحثا على غاية من الأهميّة في صلتها بالإنسان الفرد وبالجماعة، ومن هذا المنطلق لا يمكن البتّة إلغاء الهويّة أو استبدالها أو محوها في ثقافة من الثقافات، لأنّها تمثّل إرثا رمزيّا مشتركا ومتّصلة باللاوعي الجمعيّ.

2-1 الهوية ومخاطر الاختفاء

أيّة مخاطر تهدّد الهويّة في عصر العولمة وصراع الهويّات؟ كيف يمكن للهويّة أن تصمد في ظلّ عصر التطرّفات على حدّ عبارة أحد المفكرين؟ وكيف يمكن للإنسان أن يستغني عن الهويّة إذا فسّرنا الهويّة بأنّها تتأسّس"على شعور فطريّ بالانتماء نوعا ما . إنّ الهويّة، مفكّرا فيها على أنّها شرط ماثل في الفرد، وهي ما يعرّفه بصفة ثابتة ونهائيّة"[26]، فالهويّة من هذا المنطلق على صلة بجوهر الانسان وبزوالها يصبح وجود الإنسان مهدّدا بالإلغاء، كما أنّ للدولة دورا في حماية الهويّات الجماعيّة والهويّات الصامتة فقد يكون الاعتراف السياسي بالهويات الجماعية مهمًا لأنه يساعد على ترسيخها. فإذا نجحت جماعة في كسب هذا الاعتراف، فإنها تؤسّس لواحد من بين العديد من الخطوط الممكنة للانقسامات الاجتماعية من ناحية أولى؛ ومن ناحية ثانية تكون قادرة علناً على تحديد ما يعنيه أن تنتمي إلى جماعة"[27]. وبهذا الطرح تغدو الهوية أمرا جوهريّا لا مناص من الحفاظ عليه، فمن جهة أولى هي كامنة في جوهر الإنسان، مثبتة لوجوده، ومن جهة ثانية هي أداة للدولة تمنحها للأفراد حتى يتعايشوا في ظلّ تنظيم سياسيّ واجتماعيّ قائم على العدل، فالهوية معطى متحوّل قابل للتبدّل والتغيّر والتطوّر وعلى النظام السياسيّ القائم أن يضمن لها هذه الأسباب الموضوعية للحفاظ على وجودها إذ" ليست هناك هويّة في ذاتها ولا حتّى لذاتها، وحسب، الهويّة هي دوما، علاقة بالآخر، وبتعبير آخر، الهوية والآخريّة متّصلتان، الواحدة بالأخرى، وتجمعهما علاقة جدليّة. إنّ التماهي يتوازى مع التمايز. إذا اعتبرنا أنّ الهويّة، دوما، محصّلة صيرورة تماه، في وضعية علائقيّة، وأنّها نسبيّة أيضا"[28]، فالهويّة هي صيرورة وتماه مع الآخر، فهي لا تتّصف بالجمود وتستمدّ قوتها واستمراريّتها من حركة التاريخ والاجتماع البشريّ، ويكشف البحث في تاريخ الهويات أنّ عديد الهويات الجماعيّة في تاريخ الثقافة العربيّة امحت ولم تعد توجد سوى في مصنّفات الملل والنحل والأخبار، ويبقى أهمّ عامل تغييب هذه الهويات هو العامل الدينيّ، فقد غلب الدين على أنفس الناس وشكّل هويّة جماعيّة قائمة على الإجماع فذابت الهويات الصامتة في الهويّة الجماعيّة السائدة أمّا الهويات التي ظلت خارج سياق الإجماع فقد اندثرت لعوامل تاريخيّة وسياسية.

يذكر محمدّ عابد الجابري في بحث مهمّ أنّ الهويّة معطى تاريخيّ لا يمكن أن يفهم خارج سياق الاجتماع البشريّ والتاريخ والدولة والمستقبل، وهو في إطار تحليله لهذه المعطيات يقول: " إنّ ذاكرتنا التاريخيّة الثقافيّة الدينيّة حاضرة هي الأخرى في تفكيرنا كلّما اتجهنا بأنظارنا إلى المستقبل: فمنّا من لا يرى المستقبل إلاّ في الماضي، ومنّا من

يراه رؤية مدعومة بجانب من جوانب تاريخنا، وقليل منّا من يفكّر فيه بدون ذاكرة تاريخيّة عربيّة إسلاميّة"[29]، إذ تظلّ الهويّة في المجتمع العربيّ الإسلامي منشدّة إلى الإسلام لتبني هويّة ثقافيّة دينيّة ذات توجّه إسلاميّ، وإنّ هذه الهويّة رغم صيرورتها التاريخيّة فإنّها ظلّت تستلهم من الماضي أسباب بقائها، فالإجماع العربيّ هو من أسّس دعائم هذه الهويّة وإنّ كل إلغاء لهذا الماضي هو إلغاء للهويّة؛ فالذاكرة الثقافيّة هي رأسمال رمزيّ يتلبّس بالدين ومن ثمّة تتشكّل الهويّة الجماعية، والهوية حسب الجابري لا يمكن أن تستمرّ بالقطع مع التاريخ لأنّها حتما ستكون هويّة مشوّهة لا استمراريّة لها في التاريخ المعاصر أو هي هويّة منصهرة في الغربيّ، وهو إشكال اهتم به الجابري وقدّم أدلّة عليه وشرحا مطوّلا، لكنّ هذه رؤية قد لقيت نقدا من قبل دارسين آخرين خاصّة أنّ هويّات تشكّلت منفصلة عن التاريخ العربيّ الإسلاميّ، وقد عاشت وازدهرت وجذبت عديد الأفراد والجماعات واعترفت بها الدولة المعاصرة.

2-2 الهوية والتقارب الثقافيّ

توجد في الفكر الغربيّ آراء فكريّة تعلي من عقيدة التسامح والفكر الإنسانيّ، وقد بدأ هذا الفكر منذ عصر النهضة الأوروبيّ، وشمل الفلسفة والفكر وعلم الاجتماع وغير ذلك من العلوم الإنسانيّة، فقد كتب جون لوك في " رسالة في التسامح" منوّها " وأنا أعتقد أنّ أيّ إنسان يتصوّر أنّه مهيّأ لإنزال العذاب بإنسان آخر بدعوى أن ينشد خلاص نفسه، فإنّ مثل هذا الإنسان يبدو غريبا عنّي وعن أيّ شخص آخر. ومن المؤكّد أنه لا يوجد إنسان يعتقد أنّ مثل هذا الفعل يصدر عن المحبّة أو إرادة الخير"[30]، وقد اخترنا هذا الشاهد لنبيّن أنّ الفكر الغربي الحديث هدف في مرحلة تاريخيّة معيّنة إلى التسامح مع المختلف وعدم نبذه وعزله، وقد سعت الثقافة الغربيّة إلى التكفير عن الحقب الاستعمارية والأذى الذي لحق الإنسانيّة جرّاء هذا الاستعمار، فكان الفكر مغايرا ساعيا إلى الحديث عن إنسان كونيّ خيّر لا يمكن لاختلاف الهويّة أن يحطّ من إنسانيّته ولا العقائد الدينيّة أن تنقص من قيمته، وقد ساهم فلاسفة الأنوار والعقد الاجتماعيّ في بلورة هذا التوجّه الفلسفيّ الأخلاقيّ، لكنّ هذه الأدبيات اندرجت في حقبة تاريخيّة لم تعرف صراعا من أجل الهويّة ولم تدرك عصر التطرّفات على حدّ عبارة إيريك هوبزباوم، إذ أصبحت هذه الأدبيّات المتقدّمة مجرّد مثاليات نقضتها الصراعات المستعرة، وقد كان قطبا هذا الصراع الشرق والغرب، خاصّة أنّ هذه العلاقة قد خرجت عن المألوف أو من صراع استعماريّ قائم على الاستحواذ على الثروات والأرض إلى صراع خفيّ يعتمد على الهويّة والدين والثقافة، وظلّ هذا الصدام مستمرا لعقود طويلة مثلما أشار إلى ذلك المفكّر إيريك هوبزباوم[31]، وتتحوّل في هذا الإطار الأدبيات الفلسفية الجديدة إلى أدبيّات قد تغذّي صراع الهويّة بين الأفراد والجماعات، والأفدح أنّ هذا الصراع تحوّل من صراع قطريّ في رقعة جغرافيّة محدودة إلى صراع أوسع وأكثر انتشارا وحقدا وكراهيّة، وتجدر الإشارة إلى أنّ مفكّرين عربا تحدّثوا على أنّ هذا الصراع الهوويّ المحتدم كان بسبب استعداء الأوساط الغربيّة للعرب والمسلمين ويستدلّون بذلك بالكتابات الاستشراقية، فقد ذكر إبراهيم النملة أنّ الكراهية نشأت بين الثقافات بسبب الاستشراق مسترشدا في ذلك بقولهم أنّ الإسلام خطر على الغرب المسيحيّ[32]، وإنّ هذه المصادرة كانت لها استتباعات على الهويّة العربيّة الإسلاميّة منها اعتبار الهويّة العربية هويّة مقصية للآخرين، فتمّ استعداء الإسلام والمسلمين. ويذكر النملة أنّ هذا الصراع لم يلق صدى لدى الأوساط الإسلاميّة "فمستقبل الإسلام بوصفه شريكا وندّا في الحوار لن يتأثّر سلبا بهذه السياسات، ولا بيئة الكراهيّة الناجمة عنها، فالنقاش بين المسلمين لا يدور حول نبذ الغرب من حيث المبدأ، بل إنّه يدور حول ما يؤخذ من الغرب أو يردّ"[33]، ولكنّ هذا الرأي يبدو نسبيّا للوهلة الأولى، إذ أنّ صراع الثقافات مازال قائما ومحتدما ولا يكمن أنّ نقارن بين وجوه الصراع المعاصرة وعلاقات التجاوب المعرفيّ بين الثقافة العربيّة والغربيّة، فقد وسمت الثقافة العربيّة في دراسات كثيرة بأنّها ثقافة كراهيّة وأنّ الهويّة العربيّة هي هويّة ذكوريّة مهيمنة، ولكن يبقى السؤال المطروح ماهي العوامل المؤجّجة للصراع بين الشرق والغرب؟ وكيف يمكن للهويّة العربيّة أن تغدو هويّة غير عنفيّة؟

من بين الحلول العمليّة التي يمكن أن نطرحها في ختام هذا البحث أنّ إشكال الثقافة العربيّة والعنف الملازم للهويّة العربيّة يعود إلى استعمال نصوص تراثيّة وتأويلها، ويمكن لهذا الاستبطان أن يسيء إلى الثقافة العربيّة ويتجلّى في الهويّات الجماعيّة المهيمنة، منها الصفة الذكوريّة للهويّة واستشراء العنف واستعداء المغاير، ولتخليص الهويّة من هذه الشوائب لابدّ لنا من إعادة قراءة نقديّة للنصوص المرجعية التي ساهمت في قتامة المشهد[34]، وفي الآن نفسه لا يمكن التسليم بأنّ الغرب لا يستعدي الآخر، وإنما نجد عديد الكتابات الاستشراقيّة التي تبرهن على ما فسّرناه ابتداء من الكتابات الاستشراقيّة الحديثة والمعاصرة إلى ما كتب في صدام الحضارات، ويبقى اتهام الثقافة العربيّة بأنّها ثقافة لاغية للمختلف قولا نسبيا انطباعيّا رغم أنّ فيه جانبا كبيرا من الأسئلة التي تتطلّب أجوبة، ولتجاوز هذا الإشكال الثقافيّ المعرفيّ لا بدّ من قراءة المختلف ثقافيّا دون آراء مسبقة حتّى نؤسس لهويات منسجمة وغير متنافرة[35].

خاتمة

إنّ الهويّة مصطلح إشكاليّ وظيفيّ، وقد اهتمت به البحوث الإنسانية والفلسفيّة منذ القديم، ويكمن الاهتمام به نظرا لاتصاله بحياة الإنسان بوصفه كائنا اجتماعيّا يعيش داخل جماعة بشريّة، وقد حاولنا في هذا البحث أن ننظر في تأصيل الهويّة، إذ ارتبط هذا التأصيل بإيحاءات حافّة بمعاني الهويّة في الفكر الإنسانيّ والعربيّ، منها ارتباط الهويّة ببنى أخرى مثل إحالتها على مفهوم الاختلاف الذي يعتبر مشكّلا بنيويّا لها والثقافة التي تعتبر رافدا من روافدها الأساسيّة، وقد بيّنا صلة الهويّة بالعنف اعتمادا على دراسات معاصرة في هذا المنحى وما يمكن أن يهدّد الهويّة من مخاطر أهمّها هيمنة هويّة جماعيّة على أخرى وصولا إلى الاحتراب بينهما. إذ تبقى الهويّة في نظرنا إطارا للدراسة رغم تراكم البحوث في هذا الشأن، وتكتسب الهويّة بعدا تجديديا لارتباطها بأحداث قديمة ومعاصرة، إنّها على صلة بالتاريخ وجوهر الانسان ووجوده، وهي معرّضة للاختفاء والغلبة لذلك رأينا أنّ دراسة الهويّة يمكن أن تفيد المقاربات الأدبيّة المعاصرة وتقدّم أسئلة جديدة في مجال البحث العلميّ.

الإحالات والهوامش

[1] مصطفى بن تمسك، في التأصيل المفهوميّ للهويّة، ضمن الدين والهويّة بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع، مايو 2016، ص 14-15.

[2] ظافر الشهري، تأصيل الهويّة وثقافة الاعتدال في الأدب السعوديّ، بحث منشور بموقع تربيتنا، 14-1-1434.

[3] معجم المعاني، تعريف مصطلح هويّة.

[4] عامر عبد زيد الوائلي، تصدير، الدين والهويّة بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع، مايو 2016، ص 7.

[5] في التأصيل المفهوميّ للهويّة، ص 15.

[6] حسن حنفي، الهويّة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2012.

[7] Charles Taylor, Sources of the Self and the Making of the Modern Identity, Cambridge University Press,1984.

[8] أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتميّ، ترجمة، سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد 352، يونيو 2008. ص 33-50.

[9] عامر عبد زيد الوائلي، تصدير، ضمن الدين والهويّة بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع، مايو 2016، ص 8.

[10] علي رسول حسن الربيعي، عنف عالمنا غير المسبوق، العرب، نيسان 2017، العدد 10596، ص، 6.

[11] أمارتيا صن، الهوية والعنف، وهم المصير الحتميّ، ترجمة، سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد 352، يونيو 2008. ص 83.

[12] علي بن ابراهيم النملة، صناعة الكراهيّة بين الثقافات ودور الاستشراق في افتعالها، دمشق، دار الفكر، 2008.

[13] عنف عالمنا غير المسبوق، العرب، نيسان 2017، العدد 10596، ص، 6.

[14] عنف عالمنا غير المسبوق، العرب، نيسان 2017، العدد 10596، ص، 6.

[15] سيدي محمد ولديب، الدولة وإشكاليّة المواطنة: قراءة في مفهوم المواطنة العربيّة، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّـان، 2010.

[16] عنف عالمنا غير المسبوق، العرب، نيسان 2017، العدد 10596، ص، 6.

[17] هوازن خداج، الرموز الدينية والصراع الصامت، العرب، مارس 2017، العدد 10584، ص، 9.

[18] أزراج عمر، النقد والهويّة، العرب، فبراير 2017، العدد 10532، ص، 15.

[19] دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة د منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، لبنـان، ط1، مـارس 2007.

[20] Toon van Meijl, Culture and Identity in Anthropology: Reflections on‘unity’ and ‘uncertainty’ in the Dialogical self, International Journal for Dialogical Science Copyright, 2008. Vol. 3, No. 1, 165-19

[21] من أهمّ الدراسات، ظافر الشهري، مستقبل العربيّة وهويتنا الثقافيّة في ظلّ العولمة، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء 2004 ص 95-116.

[22] مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص، 147.

[23] علي رسول حسن الربيعي، نقد سياسة الاعتراف، الجماعات والهويّة الوطنيّة والعلاقة الديمقراطيّة، الجديد، نيسان 2017، العدد 27، ص، 16.

[24] نقد سياسة الاعتراف، الجماعات والهويّة الوطنيّة والعلاقة الديمقراطيّة، الجديد، نيسان 2017، العدد 27، ص، 16.

[25] مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص، 150.

[26] مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص، 150.

[27] نقد سياسة الاعتراف، الجماعات والهويّة الوطنيّة والعلاقة الديمقراطيّة، الجديد، نيسان 2017، العدد 27، ص، 16.

[28] مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ص، 154.

[29] محمد عابد الجابري، مسألة الهويّة، العروبة والإسلام...الغرب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، طبعة 4، 2012، ص139-140.

[30] جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سنه ومراد وهبه، المجلس الأعلى للثقافة، دار الكتب المصريّة، ط1، 1997، ص21-22.

[31] إيريك هوبزباوم، عصر التطرفات، القرن العشرون الوجيز، 1914-1991. ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربيّة للترجمـة، ط1، بيروت 2011.

[32] علي بن ابراهيم النملة، صناعة الكراهيّة بين الثقافات ودور الاستشراق في افتعالها، دمشق، دار الفكر، 2008. ص 90

[33] صناعة الكراهيّة بين الثقافات ودور الاستشراق في افتعالها، دمشق، دار الفكر، 2008. ص 91-92.

[34] سعد البازعي، استقبال الآخر، الغرب في النقد الأدبيّ الحديث، المركز الثقافي العربي، 2014.

[35] أحمد زايد، سيكولوجيّة العلاقات بين الجماعات، قضايا في الهوية الاجتماعيّة وتصنيف الذات، عـالم المعرفـة، عـدد 326، 2006.

المراجع:

العربية:

- دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة د منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، لبنـان، ط1، مـارس 2007.

- محمد عابد الجابري، مسألة الهويّة، العروبة والإسلام...الغرب، مركز دراسات الوحدة العربيّة، طبعة 4، 2012.
-أحمد زايد، سيكولوجيّة العلاقات بين الجماعات، قضايا في الهوية الاجتماعيّة وتصنيف الذات، عالم المعرفة، عدد 326، 2006.
-أزراج عمر، النقد والهويّة، العرب، فبراير 2017، العدد 10532.
-أمارتيا صن، الهوية والعنف: وهم المصير الحتميّ، ترجمة، سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد 352، يونيو 2008.
-إيريك هوبزباوم، عصر التطرفات، القرن العشرون الوجيز، 1914-1991. ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربيّة للترجمة، ط1، بيروت 2011.
-جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سنه ومراد وهبه، المجلس الأعلى للثقافة، دار الكتب المصريّة، ط1، 1997.
-حسن حنفي، الهويّة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2012.
-سعد البازعي، استقبال الآخر، الغرب في النقد الأدبيّ الحديث، المركز الثقافي العربي، 2014.
-سيدي محمد ولديب، الدولة وإشكاليّة المواطنة: قراءة في مفهوم المواطنة العربيّة، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، 2010.
-ظافر الشهري، تأصيل الهويّة وثقافة الاعتدال في الأدب السعوديّ، بحث منشور بموقع تربيتنا، 14-1-1434.
-ظافر الشهري، مستقبل العربيّة وهويتنا الثقافيّة في ظلّ العولمة، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء 2004.
-عامر عبد زيد الوائلي، تصدير، الدين والهويّة بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع، مايو 2016.
-عبد الله الغذامي، المشاكلة والاختلاف قراءة في النظرية النقدية العربيّة وبحث في الشبيه المختلف، المركز الثقافي العربي ط 1، 1994.
-علي إبراهيم النملة، الشرق والغرب، منطلقات العلاقات ومحدّداتها، ط3، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، لبنان، 2010.
-علي بن ابراهيم النملة، صناعة الكراهيّة بين الثقافات ودور الاستشراق في افتعالها، دمشق، دار الفكر، 2008.
-علي رسول حسن الربيعي، عنف عالمنا غير المسبوق، العرب، نيسان 2017، العدد 10596.
-علي رسول حسن الربيعي، نقد سياسة الاعتراف، الجماعات والهويّة الوطنيّة والعلاقة الديمقراطيّة، الجديد، نيسان 2017، العدد 27.
-محمد عابد الجابري، مسألة الهويّة، العروبة والإسلام والغرب، دار الغرب الإسلامي، ط4 ، دار الغرب الإسلاميّ. 2012.
-مصطفى بن تمسك، في التأصيل المفهوميّ للهويّة، ضمن الدين والهويّة بين ضيق الانتماء وسعة الإبداع، مايو 2016.
-معجم المعاني، تعريف مصطلح هويّة.
-هوازن خداج، الرموز الدينية والصراع الصامت، العرب، مارس 2017، العدد 10584.
-أمارتيا صن،الهوية والعنف، وهم المصير الحتميّ، ترجمة، سحر توفيق، سلسلة عالم المعرفة، العدد 352، يونيو 2008.

الأجنبيّة:

-Charles Taylor, Sources of the Self and the Making of the Modern Identity, Cambridge University Press,1984.
Toon van Meijl, Culture and Identity in Anthropology: Reflections on‘unity’ and -‘uncertainty’ in the Dialogical self, International Journal for Dialogical Science Copyright, 2008. Vol. 3, No. 1, 165-19.